ظلال الهجرة و مقاطع من حياة المغاربة في «الفردوس الأوروبي»

الوجه الآخر للغرب في رواية «لم أر الشلالات من أعلى»

فاطمة الزهراء بنيس

برؤية عميقة وبرهافة تعكس حس الشاعر ووعيه الفني والجمالي المتقدم، كتب المبدع محمد ميلود غرافي روايته الأولى «لم أر الشلالات من أعلى» الصادرة حديثا عن دار الغاوون بلبنان. رواية تحتفي بسرد ينهل من الواقع، بكل توتراته وإكراهاته، ويعيد إنتاجه ضمن رؤية فنية وجمالية لا توغل في التخييل والحلم بقدر ما تقدم للقارئ رؤية الكاتب لواقع المهاجرين المغاربة في عراكهم المتواصل مع ذات مُتغربة آلت على نفسها مراكمة رصيدها من الفقد والخسران والمرارة و الغربة، بدءا من هجرة أرض الوطن الأم بحثا عن أفق اجتماعي آخر إلى العاصمة الفرنسية. تلك المدينة الرحبة والمضيئة، التي يحلم بالعيش في أرجائها كل من اكتوى بنيران الخوف والعبودية.

في باريس تتكسر الأحلام والتطلعات مفسحة المجال لإخفاقات وإحباطات متواصلة لا تني تلقي بظلالها القاتمة على الذات. تفاصيل كثيرة يتداخل فيها اليومي بالثقافي، التاريخ بالحاضر، تجعل الصورة البراقة والأخاذة للغرب كفضاء للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والرفاه الاجتماعي مجرد أوهام لا صلة لها، على الإطلاق، بالواقع المعيش؛ ذلك ما يدركه أبطال الرواية، على اختلاف أعمارهم ومواقعهم، وهم يكتشفون ما تخفيه الواجهة المنمطة بالشعارات الرنانة التي تتسابق على تسوقيها وسائل الإعلام. هذا الاكتشاف يضاعف لديهم إحساسا فادحا بالضياع يَطال الذات والهوية والمستقبل وحتى وجودهم نفسه. نقرأ في ص 43 «نشرات الأخبار مملة وفيها الكثير من الانتقاء والزيف والأكاذيب ، وصلتُ إلى باريس أياما قبل بداية قصف العراق للكويت وشاهدتُ شريطا مُفبركا لمقدم نشرة القناة الأولى الشهير هو يستجوب صدام حسين، كان قد فعل الشيء نفسه سابقا حين ادّعى أنه استجوب فيديل كاسترو». هكذا يصطدم الراوي بالوجه الآخر للإعلام الغربي، الذي يدعي المصداقية والحيادية، وهو ما يجعل صورة باريس لديه تزداد قتامة مبتعدة عن صورتها المألوفة كفضاء للفن والأدب والمعرفة والأنوار. يعترف الراوي أن أبرز خطأ ارتكبه كان يوم ركب ذات خريف حافلة مُتجهة إلى مدينة باريس.لم يكن يدري أنّ فرنسا لا تريد إلا عمالا يَكدُّون ويكدحون في أوراش البناء وَ حقول العنب. و يقولون: «وي ميسيو» كما في أيام الاستعمار. فرنسا لا حاجة لها بطلاب عرب وأفارقة بدؤوا يفهمون أنّ الديمقراطية مازالت مشروعا لم يتحقق بعد على هذه الأرض، وأن حقوق الإنسان أمر يهم الساسة الفرنسيين حين يتعلق الأمر فقط بمواطنيهم.

في ظل هذه الصدمة الثقافية متعددة الأبعاد، التي تربك كل حسابات الراوي، تظهر ريبيكا إنجليزية الأصل، الأنثى المشعة كشمس ربيعية صافية متألقة، لتعيد بعض التوازن النفسيّ إلى الراوي المثقل بذكرياته وهمومه وإحباطاته. تقتحم ريبيكا، كرمز للأنثى الحلم، حياة البطل/الراوي لتقدم نموذجا في الحنان والعطف والبذل، الذي يتجاوز كل الاعتبارات الدينية والعرقية والثقافية دونما اكتراث بأي اعتبارات أخرى قد تحُول بين قلبين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين.

هنا يصبح الحب سلطة أخرى تَخْلطُ الأوراق وتجعل المستحيل ممكَنا والممكنَ مُتجاوزا وتنعطف بهذه العلاقة العاطفية صوب وجهة أخرى يصبح معها الحب قدرا لا فكاك منه.

تصف الرواية ريبيكا كامرأة تنتمي إلى ثقافة مغايرة، تحمل أفكارا تتعارض مع أفكار الرجل المغربيّ/ واهتمامات تبدو له أحيانا سخيفة مقارنة باهتماماته، لكنها امرأة صادقة في عشقها وعطائها اللامحدودين لهذا المهاجر القادم من الجنوب. هكذا، وبإشارات إنسانية بليغة ودالة بدأت القصة العاطفية على ضفاف نهر السين وانكسرت في أوج انغماسهما على مرمى حجر نهر التايمز لأن منعرجات الواقع كانت أقوى وأعنف من حلمهما الجميل المشترك في بناء أسرة متعددة الجذور الثقافية، تؤمن بقيم الاختلاف والتعدد وقبول الآخر كيفما كان.

وعلى الرغم من حبه لريبيكا، التي آوته وأعطته كل شيء وكانت ملاذه الروحيّ في منفاه، فإن البطل بدا عاجزا عن تجاوز الإكراهات المرتبطة بالنظام الاجتماعي والثقافي الذي ينتمي إليه، مما جعل علاقته بريبيكا، المتحررة في أفكارها الجنسية، المهتمة بظواهر لا تعنيه إطلاقا، تتعثر وتصطدم بالاختلافات الجوهرية الكبرى بينهما. فالبطل مُصر على أنه لو رزق بطفلة سيحرص على طول ضفائرها وإذا رزق بطفل سيشتري له مسدسا وحصانا خشبيا ويقول له: كن رجلا. هذا الإرث من التقاليد والقيم والأفكار التي تشربها البطل/ الراوي منذ نعومة أظافره، والذي لم يستطع التخلص منه رغم إقامته في بلد غربي، بدا في لحظة كحاجز ثقافي ورمزي يباعد بينه وبين حبيبته ريبيكا، التي تبدو غير مستعدة لمغادرة عالمها الثقافي والالتحاق بعالم آخر. وهذا ما يمنح صورة إيجابية للمهاجرين المغاربة، بمعنى عدم انسلاخهم الكليّ عن موروثاتهم التي فيها من الإيجابيّ مثل ما فيها من السلبيّ.هذه الصورة جسدتها أيضا المهاجرة الجزائرية نادية التي كانت تقاتل على جبهات متعددة من أجل الحصول على قوتها اليومي دون المساس بأنفتها.وهي أيضا صورة ايجابية منحها المبدع محمد ميلود غرّافي للمرأة العربية المهاجرة عكس ما يُروج له البعض من صور مخزية عن النساء العربيات المهاجرات.

هكذا و بلغة سردية ناصعة المعنى تكشف لنا رواية «لم أر الشلالات من أعلى» عن سلسة من المعاناة المادية والمعنوية لمهاجرين لم يختاروا المنفى رغبة وإنما تحت إكراهات متعددة المصادر.

في الختام يمكن اعتبار رواية "لم أر الشلالات من أعلى" إضافة مهمة ونوعية للمنجز الروائي المغربي والعربي فيما يتعلق بموضوعة «العلاقة مع الغرب» بكل أبعادها الثقافية والاجتماعية والرمزية. وإذا كانت هذه العلاقة قد تعددت أوجه حضورها في الرواية العربية المعاصرة، فإن الرواية التي بين أيدينا تحاول الاقتراب أكثر من هذه العلاقة في إشكالاتها الراهنة المرتبطة بالهجرة والهوية وصراع الحضارات وغيرها من القضايا.